٢ـ فَاس

أُسست فاس في أيام ادريس الأكبر سنة ١٧٢ (٧٨٨)، وذلك بعد ان ضاقت وليلي به وبجماعته وبمن وفد عليه من أهل المنطقة. ويبدو ان النقود ضربت في فاس هذه سنة ١٨٩ (٨٠٥). وبعد ذلك بمدة ذهب ادريس الأكبر إلى فاس ليستوطنها. ولما كان مولعاً بالبناء والتجديد، على غرار ما عرف عن كبار أهل الحكم في العالم الاسلامي، فقد بنى هو الآخر مدينة جديدة على الطراز الشرقي الإفريقي وذلك في سنة ١٩٣ (٨٠٩). وسميت أولاً العالية. لكن بسبب كثرة من رحل اليها من القيروان وما اليها فقد عرفت فيما بعد باسم مدينة القرويين.

وفي سنة ٢٠٢ (٨١٧) قدم إلى ادريس الأزهر القرطبيون المعروفون باسم «ثوار الربض». ذلك ان ثورة قامت في قرطبة ضد الحكم أميرها، فقام الحكم بإخمادها وفرّق الثوار ثم أمر من بقي منهم، وهم كثرة، بالخروج من الاندلس .. فانصرف بعضهم إلى فاس. فتلقاهم ادريس هناك، واستقروا على الضفة الشرقية من النهر، وانشأوا تدريجاً مدينة اندلسية الشكل والنمط، وهي التي سميت فيما بعد مدينة الأندلسيين او عدوة الأندلس[١].

ولما تمّ للإمام الأكبر ادريس بناء مدينته، وحضرت الجمعة الأولى، صعد المنبر وخطب الناس، ثم رفع يديه في آخر الخطبة وقال: «اللهم انك تعلم اني ما اردت ببناء هذه المدينة مباهاة ولا مفاخرة ولا رياء ولا سمعة ولا مكابرة. وانما اردت ان تعبد بها ويتلى بها كتابك وتقام بها حدودك وشرائع دينك وسنة نبيك محمد ﷺ ما بقيت الدنيا. اللهم وفق سكانها وقطانها للخير وأعنهم عليه واكفهم مؤونة اعدائهم وادر عليهم الرزق واغمد عنهم سيف الفتنة والشقاق انك على كل شيء قديراً[٢]».

ومما يتصل بفاس، وان كان تأخر عن بناء المدينة قليلاً، إنشاء جامع القرويين. وقد روى خبر بنائه ابن القاضي في جذوة الاقتباس قال:

«ذكر أبو القاسم بن جنّون وغيره في تأريخ فاس أنه لما كثر الواردون عليها في أيام يحيى بن ادريس كان ممن قدم عليها ووفد إليها من القيروان محمد بن عبد الله الفهري، ونزل بعدوة القرويين مع أهل بلده الذين وفدوا معه. فمات وترك ابنتين وهما فاطمة المدعوة بأم البنين ومريم. وتحصّل لهما بالارث مال كثير طيّب من والدهما. ورغبتا ان تصرفاه في وجوه من أعمال البر فأعلمتا باحتياج الناس الى جامع كبير في

كل عدوة من فاس لضيق الجامعين القديمين بالناس. فشرعت فاطمة في بناء جامع القرويين ومريم في بناء جامع الأندلس؛ أما جامع القرويين فكان الشروع في حفر أساسه والأخذ في أمر بنائه يوم السبت مهلّ شهر رمضان المعظّم من عام خمسة وأربعين ومائتين، وكان بموضعه الذي بني فيه أرض لمعمر الخضر وفيها أشجار لرجل من هوارة كان قد حاز ذلك أبوه بوجه جائز صحيح، حين أسست المدينة حرسها الله بمنّه، فاشترتها منه فاطمة المذكورة ودفعت ثمنها من مالها الحاصل لها بالميراث من أبيها، وتطوّعت ببناء الجامع المذكور. فحفر في أرضه وأخذ منه التراب والكذان لبنيانه وحفرت فيها بئر لأخذ الماء لبنيانها ونصبت قبلته على نحو قبلة جامع الشرفاء الذي أسسه ادريس بن ادريس بعد مشورة أهل العلم واجتهادهم في ذلك. وبني من أربعة بلاطات من قبلة إلى جوف في كل بلاط اثنا عشر قوساً من شرق الى غرب. وجعل محرابه بمقدّم البلاط الذي أمام الثريا الكبرى اليوم وجعل بمؤخره صحن صغير وصومعة حيث العنزة اليوم. وتم على نحو ما أرادته وذلك بمطالعة الأمير يحيى. ولم تزل صائمة من يوم أسس الى ان كمل وصلت فيه شكراً لله تعالى الذي وفّقها لذلك، ولم يزل على نحو ما ذكر في أيام الأَدارسة الى ان اتصلت العمارة واتصل البناء في أرض المدينة من سائر الجهات وجرى أمر زناتة في أرض المغرب في سنة سبع وثلاثمائة فأزيلت الخطبة من جامع الشرفاء وأقيمت بجامع القرويين لاتساعه وكبره. فصنع له منبر من خشب الصنوبر وكان أول خطيب خطب عليه بها الشيخ الصالح أبو محمد عبد الله ابن علي الفارسي وإن الذي أقام الخطبة إذ ذاك هو الأمير حامد بن حمدان الهمذاني عامل عبد الله الشيعي على بعض بلاد المغرب بعد أن كان تغلّب عليها مصاله بن حبوس القائم بدعوة الشيعي، ولم يزل كذلك الى ان تقوى ظهور زناتة بالمغرب فاستدعاه الناصر لدين الله عبد الرحمن المرواني ملك الاندلس. ثم لما ولي عليها عاملاً له من زناتة يعرف بأحمد بن أبي بكر الزناتي وكان من أهل الفضل والدين كتب الى الناصر يستأذنه في بناء الجامع وإصلاحه والزيادة فيه لحاجة الناس الى ذلك فأذن له وبعث إليه بمال كثير من اخماس غنائم الروم وأمره ان يصرفه فيه، فأصلحه وزاد فيه أربعة [أربع] بلاطات من الغرب وخمسة [خمس] من الشرق وثلاثة [ثلاث] من الجوف في موضع الصحن الذي كان فيه وجعل بمؤخر الصحن الذي به الآن وفي غرب هذا الصحن بلاطين وفي شرقه كذلك وفي جوفه بلاطاً واحداً بعد ان هدم الصومعة التي كانت به وبنى الصومعة التي به الآن. ولما شرع في بنائها جعل سعة كل وجه منها إحدى وعشرين شبراً ويصعد لها على مائة درجة ودرجة بابها من جهة القبلة، وغشيت بعد ذلك بصفائح النحاس الاصفر. وتمّ العمل في بنائها في شهر ربيع الاول من سنة خمس وأربعين وثلاثمائة حسبما كتب في التربيعة المنقوشة بها من

جهة الصحن وجعل في أعلاها قبة صغرى ووضع في ذروتها تفافيح مموّهة من ذهب في زج من حديد، وركّب في الزج المذكور سيف الامام ادريس الذي أسس المدينة[٣]».

الا ان مدينة فاس تقدمت واتسعت في أيام بني مرين اذ اتخذوها عاصمة لملكهم لما استقر أمرهم في البلاد. والذي يعود اليه الفضل في إنشاء الدولة والعاصمة الجديدة لها هو ابو يوسف. فانه «لما عزم أمير المسلمين ابو يوسف على بناء مدينة يتخذها دار ملكه وقرار سلطانه ويسكنها هو وحاضرته وحشمه، ركب يوم الأحد الثالث لشوّال من سنة أربع وسبعين وستمائة [٢٩ حزيران ١٢٢٣] وخرّج معه العرفاء والبنائين وأهل المعرفة بالصنائع فتخيروا موضعها على وادي فاس وشرع في حفر أساسها. واخذ طالع ذلك الفقيه المعدّل ابو الربيع سليمان العيّاش وابو عبد الله محمد بن الحبّاك وكان تأسيسها في طالع سعيد ووقت يمن وبركة ومزية دل على طول بقائها وكثرة عمارتها واتصال خيراتها وما يجيء اليها من الأموال؛ فكانت والحمد لله مدينة مباركة فاتخذها دار ملكه وملك بنيه وعقبه من بعده يجيء اليها جميع خراج المغرب. ومن بركتها وسعادتها ويمن طالعها انها لا يموت فيها خليفة وانها لم يخرج منها قط جيش الا ظفر ولم يعقد قط بها لواء الا نصر. ومصداق ذلك ان أمير المسلمين أبا يوسف الذي اختّطها وبناها وشيّدها وبنى أسوارها وجامعها واسواقها واتخذها دار ملكه وقرار سلطانه توفي رحمه الله غائباً عنها في المدينة التي بناها أمام الجزيرة الخضراء من بلاد الاندلس؛ ثم ولده الخليفة بعده امير المسلمين أبو يعقوب توفي بقصره في بلدته الجديدة التي بناها بتلمسان وهو محاصر لها فاستوطنها ومتّنها واتخذها حضرته إلى ان توفي بها. وكذلك حفيده الخليفة بعده وهو الأمير ابو عبد الله بن ابي يعقوب المذكور توفي بقصره بقصبة طنجة وكذلك أخوه الوالي بعده ابو الربيع سليمان فانه توفي أيضاً بقصبة رباط تازا. ولما تمّ سور هذه المدينة السعيدة فاس الجديد بالبناء امر ببناء الجامع الكبير بها للخطبة فبني على يد ابي عبد الله بن عبد الكريم الجدودي وابي علي بن الأزرق والي مكناسة والنفقة فيه من مال معصرة مكناسة. ولم يخدم في بناء هذا الجامع الكبير مع المعلمين إلا اسرى الروم الذين قدم بهم من الأندلس. وفي شهر رمضان من سنة سبع وسبعين وستمائة [٦ كانون الثاني ١٢٧٩] تمّ الجامع المذكور بالبناء وصلّى فيه؛ وفيها ابتدىء بعمل منبره الذي به الآن على يد المعلم الغرناطي الرّصاع. وأول خطيب خطب به الفقيه المحدّث ابو عبد الله محمد بن أبي زرع؛ وفي اول جمعة من شهر رمضان المعظم من سنة ثمان وسبعين وستمائة [١٢٨٠] تمّ المنبر بالعمل وخطب عليه، وفي يوم السبت السابع عشر لشهر ربيع الأول من سنة تسع وسبعين وستمائة [١٢٨١] علّقت الثريا الكبرى بالجامع المذكور، وزنها سبعة قناطير وخمسة عشر رطلاً، وعدد كؤوسها مائة كأس وسبعة وثمانون كأساً. وكان الصانع لها المعلّم الحجازي، والانفاق فيها من جزية اليهود. وفي

شهر رمضان من سنة تسع المذكورة بنيت المقصورة بالجامع المذكور وفيها بني في المدينة المذكورة الأسواق من باب القنطرة الى باب عيون صنهاجة وبنى بها حمّاماً عظيماً وأمر رحمه الله عمّاله ووزراءه ببناء الديار بها فبنى كل واحد منهم داراً[٤]».

ولبني مرين يرجع الفضل في تقوية مركز المدينة علميًا. فقد وسع ابو عنان خزانة القرويين وبنى المدرسة البوعنانية. وقد جاء في جنى زاهرة الآس «واما خزانة الكتب التي يدخل اليها من أعلى المستودع الذي بها فانه لما كان من رأي ابي عنان رحمه الله تعالى حبّ العلم وايثاره والاهتمام به والرغبة في انتشاره والاعتناء باهله ومتحمليه والتودّد لقرّائه ومتحليه، انتدب لصنع هذه الخزانة وأوسع على طلبة العلم بأن اخرج لها من الكتب المحتوية على انواع من علوم الابدان والاديان واللسان والأذهان وغير ذلك من العلوم على اختلافها وتنوّع ضروبها واجناسها ووقفها ابتغاء الزلفى ورجاء ثواب الله الأوفى، وعيّن لها قيّماً لضبطها ومناولة ما فيها وتوصيلها لمن له رغبة، واجرى له على ذلك جراية مؤيدة تكرمة وعناية وذلك في جمادى الأولى سنة خمسين وسبعمائة. واما خزانة المصاحف التي امر بها مولانا امير المؤمنين ابو عنان رحمه الله تعالى في قبلة هذا الجامع الناطقة بالخير الجامع انشى على حسنها ما لم يسبقه اليها أحد من ايمة هذه الأصقاع فانه رحمه الله تعالى صوّرها في ذهنه الثاقب المبين ثم أبرزها لمن صنع شخصها الجليل الحصين فأبدى من ذلك ما هو المعهود من حسناته المأثورة وسهّل بها على الناس تلاوة القرآن في كل وقت من الأزمان. وأعدّ فيها جملة كثيرة من المصاحف الحسنة الخطوط البهية الجليلة السنية وأباحها لمن أراد التلاوة فيها بعد ان كتب على كل شخص منها بخط يده لتوقيعها مرّ الأعوام والليالي والأيام ونجز لها من قيّد لاخراجها من هذه الخزانة وإبرازها وردّها لصيانها في موضعها واحرازها، وذلك عند الفراغ من حاجة الناس اليها فلا يبدل ذلك ولا يغير إلى ان يرث الله الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين. واجرى لذلك جراية واسعة وكرامة ورعاية، وكتب فوق هذه الخزانة ما نصّه: الحمد لله؛ أمر بانشاء هذه الخزانة السعيدة مولانا امير المؤمنين المتوكّل على ربّ العالمين عبد الله فارس، ايّد الله امره واعزّ نصره، بتأريخ شهر شوّال سنة سبعين وسبعمائة [١٣٦٩] رزقنا الله خيرها. واما زاوية القرّاء البهية التي امر بها مولانا المستعين رحمه الله في شرقي هذا الجامع مسافتها على ساباط هنالك وجعل لقبليّها وجوفها من صناعة الخرط والتزيين بالاصبغة ما يهيم به المارّ والسالك، ورتب فيها قرّائين يتلون القرآن ويجتهدون بطول السبعة ايام وعلى مرّ الأزمان[٥]».

ولأبي سعيد المريني فضل على المدارس كبير، فقد أنشأ المدرسة العظمى. «وفي سنة ثلاث وعشرين وسبعمائة (١٣٢٣) في فاتح شعبان منها امر السلطان ابو سعيد ايضاً ببناء المدرسة العظمى بازاء جامع القرويين بفاس وهي المعروفة اليوم

بمدرسة العطارين، فبنيت على يد الشيخ ابي محمد عبد الله بن قاسم المزوار، وحضر السلطان ابو سعيد بنفسه في جماعة من الفقهاء وأهل الخير حتى أسست وشرع في بنائها بمحضره، فجاءت هذه المدرسة من أعجب مصانع الدول بحيث لم يبن ملك قبله مثلها، وأجرى بها ماء معيناً من بعض العيون هنالك وشحنها بالطلبة ورتب فيها إماماً ومؤذنين وقومه يقومون بامرها، ورتب فيها الفقهاء لتدريس العلم واجرى على الكل المرتبات والمؤن فوق الكفاية، واشترى عدة املاك ووقفها عليها احتساباً بالله تعالى. وسيأتي التنبيه على ما بناه ابنه ابو الحسن من ذلك ايام ولايته وحافده ابو عنان وغيرهما ان شاء الله، وبالجملة، فقد كان لبني مرين جنوح الى الخير ومحبة في العلم وأهله تشهد بذلك آثارهم الباقية الى الآن في مدارسهم العلمية وغيرها[٦]».

ومع ان عصر فاس الذهبي هو عصر بني مرين، فان المدينة كانت، حتى قبل ذلك، مهبط أهل العلم، لأنها جمعت علم المشرق والمغرب، أي علم القيروان وقرطبة، واضافت الى ذلك الكثير من تفكير ابنائها بالذات.

وقد خلّف لنا غير مؤلف وشاعر وصفاً لفاس. فمن ذلك وصف جغرافيي العرب في القرن الرابع (العاشر). ونجتزىء من ذلك على اثنين هما ابن حوقل والمقدسي. قال ابن حوقل: «وفاس مدينة جليلة يشقّها نهر وهي جانبان يليهما اميران مختلفان وبين أهل الجانبين الفتن الدائمة والقتل الذريع المتصل. ونهرها كبير غزير الماء عليه ارحية كثيرة، وهي مدينة خصبة مفروشة بالحجارة احدثها ادريس بن ادريس، في كل يوم من ايام الصيف يرسل في اسواقها من نهرها الماء فيغسلها فتبرد الحجارة. وجميع ما بها من الفواكه والغلاّت والمطاعم والمشارب والتجارات والمرافق والخانات فزائد على سائر ما قرب منها وبعد في أرض الهبط موقعه، وظاهر بكثرته حدّه وموضعه ومستفاض بوفوره مكانه ومرفقها[٧]». وقال المقدسي: «فاس بلدان جليلان كبيران كل واحد منهما محصّن، بينهما واد جرّار عليه بساتين وارحية قد استولى على احدهما الفاطمي وعلى الآخر الاموي، وكم ثم من حروب وقتل وغلبة، بناءهما مدر وحصنهما طوب وبها قلعة شميت بناها ابن البوري وأخرى على الوادي بناها ابن احمد. وهو بلد كثير الخيرات والتين والزيتون[٨]».

وممن وصف فاس عبد الواحد المراكشي الذي تحدث عنها ايام الموحدين اذ قال في المعجب: «ومدينة فاس هذه هي حاضرة المغرب في وقتنا هذا، وموضع العلم منه، اجتمع فيها علم القيروان وعلم قرطبة؛ اذ كانت قرطبة حاضرة الاندلس كما كانت القيروان حاضرة المغرب. فلما اضطرب امير القيروان كما ذكرنا بعبث العرب فيها، واضطرب امر قرطبة باختلاف بني امية بعد موت ابن ابي عامر وابنه، رحل من هذه وهذه من كان فيهما من العلماء والفضلاء من كل طبقة فراراً من الفتنة فنزل اكثرهم

مدينة فاس فهي اليوم على غاية الحضارة، وأهلها في غاية الكيس ونهاية الظرف، ولغتهم افصح اللغات في ذلك الاقليم. وما زلت اسمع المشائخ يدعونها بغداد المغرب. وبحق ما قالوا ذلك، فانه ليس بالمغرب شيء من انواع الظرف واللباقة في كل معنى إلا وهو منسوب اليها، وموجود فيها، ومأخوذ منها لا يدفع هذا القول احد من أهل المغرب. ولم يتّخذ لمتونة والمصامدة مدينة مراكش وطناً ولا جعلوها دار مملكة لأنها خير من مدينة فاس في شيء من الاشياء، ولكن لقرب مراكش من جبال المصامدة وصحراء لمتونة، فلهذا السبب كانت مراكش كرسي المملكة، وإلا فمدينة فاس احق بذلك منها. وما اظن في الدنيا مدينة كمدينة فاس أكثر مرافق واوسع معايش واخصب جهات؛ وذلك انها مدينة يحفها الماء والشجر من جميع جهاتها ويتخلل الانهار أكثر دورها زائداً على نحو من اربعين عيناً ينغلق عليها ابوابها، ويحيط بها سورها، وفي داخلها وتحت سورها نحو من ثلاثمائة طاحونة تطحن بالماء. ولا اعلم بالمغرب مدينة لا تحتاج الى شيء يجلب اليها من غيرها الا ما كان من العطر الهندي سوى مدينة فاس هذه فإنها لا تحتاج الى مدينة في شيء مما تدعو اليه الضرورة، بل هي توسع البلاد مرافق وتملؤها خيراً[٩]».

وقد وصل الينا من قلم ميمون الخطابي ذكره لاساتذته وشيوخه مما يدل على ما كان يحيط بطالب العلم في فاس من عناية ايام الموحدين. قال الخطابي: «انا ميمون ابن علي بن عبد الخالق الخطابي. وبنو خطاب في قبائل من المغرب والبربر، فبنو خطاب في صنهاجة، وفي هكورة من ملزوزة، وفي ورغة من مكناسة ورغة، وفي غمارة من صنهاجة الريف، وفي بني ابي عدي بالحامة، وانا من الصنهاجيين. فهذا النسب حميري يمني قحطاني، واما مولدي فبمدينة فاس، قاعدة من قواعد المغرب، وأكثر قراءتي بها على الجلة الذين لحقت، واكبرهم جدي من الام علي بن مهدي القيسي، وعن الفقيه العالم الفاضل ابي الحسن بن حرزهم وتقول العامة (ابن حرازم) وصحب ابن دوناس من كبار العلماء بها. وقرأت على جماعة في هذه الطبقة، وقرأت في سبتة على ابن عبيد الله الحجري، سمعت الموطأ والبخاري، وكتاب السنن عليه، وقرأت بها الرسالة القشيرية على ابي الصبر، وكانت له رحلة الى المشرق والاندلس من لا احصيه كثيرة، واكبرهم شأناً ابو محمد القرطبي وأبو الحجاج بن الشيخ البلوي، وقرأت بالمنكب على الفقيه القاضي ابن سمجون وكان عالي الرواية يحمل عن الحافظ ابي بكر بن العربي وعن ابن نفيس عن الطبري بالحرم شرفه الله. ولحقت من اصحاب شريح المقرىء ثلاثة: ابا نصر التلمساني وابن حسون ببياسة، وابن المؤذن بمالقة، واجازوني، وفي غير غرناطة جماعة من اقران ابي ابن كوثر، ومن اصحابه، وفي مرسية جماعة، وبها تممت قراءتي على الفقيه القاضي ابي محمد حوط الله مدة كونه قاضياً بها، وقرأت بشاطبة على الحافظ ابي عمر بن عات رحمه الله ولحقت

بوادي «آش الحافظ ابن عمر شارح الموطأ باحسن شرح رئي، وفي اشبيلية لحقت بها من المتأخرين ابا الحسن بن زرقون ونظرائه، وفيها قرأت على ابي الخطاب ابن واجب من اهل بلنسية، وكان من اهل الرواية والفضيلة، وكتب لي ابو عبد الله بن نوح من بلنسية، وسمعت بمالقة خمسة اجزاء من تواليف ابي الربيع الكلاعي على ابي الربيع المذكور، وكنت سمعت بها، فساقه الله وساقها الي، وقرّب القصد علي، وقرأت بشلب عن ابي فاروق الشارح قصيدة ابن عبدون ما لليالي ولحقت بها ابن عمر احد الرواة بها، وقرأت في طبيرة على صاحبي الحافظ ابن خلفون. واما من لقيت وقرأت عليه من علماء الأدب وايمة اللغة والشعر والنحو، ومن العلماء بطريقة الآخرة اعني المتصوفة فممن لا احصيه كثرة. واما سني فما اضبط تاريخه لكني اعلم اني في السبعين حقيقة. والسلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته[١٠]».

وثمة وصف لعالم من علماء فاس أيام الموحدين هو عثمان السلالجي (او السلالقي)، من قلم تلميذه ابي الحسن بن عتيق قال فيه: «وخاف الله تعالى فراقبه، وعمل بمقتضى ما علم فشرح صدره وعلمه علم ما لم يعلم، ووهبه من الفهم لخطاب الشارع [والتفقه فيه، والعلم بمقاصده، والكشف لمعانيه، ومن التحقيق والتنسيق، والتحرير والتدقيق، ما يقصر عن وصفه اللسان وتكل دون البلوغ الى كنهه الاذهان. واتقى الله تعالى فوقاه، وتوكل عليه فكفاه، واهتدى بهديه فوفقه وهداه، وجعل له من امره يسراً ومخرجاً، ورزقه من حيث لا يحتسب، ووضع البركة في علمه وعمله، ورزقه من الصبر والاحتمال وحسن الخلق والعشرة والادب وحركاته وسكناته، حتى تقيدت افعاله كلها بأحكام الشرع، وجرت على مقتضيات أوامر الباري تعالى واذنه، واقتدى بهدي السلف الصالح رضي الله عنهم. ففتح له وعلى يده فتحاً خرق العادة، وحرّك النفوس، وقامت به الحجة على المبطلين، مع حداثة سنه، وقلة تمكنه مما يجده غيره من المال.والجدة وسعة الحال، فساد اقرانه ورأس اخوانه، وشرف جيرانه، وزين عصره ووقته وزمانه، اسأل الله تعالى ان يجعل البركة في عمره ورزقه، وان ينفعه ويكفيه كل هم»[١١].

وفي بلاط ابي عنان المريني تحدث ابن بطوطة عن اسفاره ـ قص اخباره على السلطان نفسه وعلى خواصه وعلى العلماء. فأعجب السلطان بها، ولذلك صدرت ارادته الى الرحالة بأن «يملي ما شاهده في رحلته من الامصار، وما علق بحفظه من نوادر الاخبار، ويذكر من لقيه من ملوكها وعلمائها الاخيار واوليائها الابرار[١٢]». ووضع السلطان كاتبه ابن جزي تحت تصرف الرحالة. فكانت لنا من ذلك هذه المتعة الادبية التي ننعم بقراءتها فنطلع على كنوز من المعرفة، فنذكر بالخير الرحّالة والسلطان وابن جزي.

ولعلّ خير ما وصفت به فاس في ايام بني مرين هو ما جاء في روض القرطاس،

لابن ابي زرع، من مؤرخي عهدهم وأعلامه. قال: «ومدينة فاس لم تزل ام بلاد المغرب في القديم والجديد وهي الآن قاعدة ملوك بني مرين اطال الله ايامهم وأعلى امرهم وخلّد سلطانهم فهي منهم في المحل الرفيع والشكل البديع وقد جمعت مدينة فاس بين عذوبة الماء واعتدال الهواء وطيب التربة وحسن الثمرة وسعة المحرث وعظيم بركته وقرب المحطب وكثرة عوده وشجره. وبها منازل مونقة وبساتين مشرقة ورياض مورقة واسواق مرتبة منتسقة وعيون منهمرة وانهار متدفقة منحدرة واشجار ملتفة وجنات دائرة بها مجتمعة. وقالت الحكماء احسن مواضع المدن ان تجمع خمسة أشياء وهي النهر الجاري والمحرث الطيّب والمحطب القريب والسور الحصين والسلطان اذ به صلاح حالها وامر سلبها وكف جبابرتها. وقد جمعت مدينة فاس هذه الخصال التي هي كمال المدن وشرفها وزادت عليها بمحاسن كثيرة فلها المحرث العظيم سقياً ويملأ على كل جهة منها ما ليس هو على مدينة من مدائن المغرب، وعليها المحطب في جبل بني بهلول الذي في قبلتها يصبح كل يوم على ابوابها احمال حطب البلوط والفحم ما لا يوصف كثرة، ونهرها يشقها بنصفين ويتشعب في داخلها انهاراً وجداول وخلجاناً فتتخلل الانهار ديارها وبساتينها وجناتها وشوارعها وأسواقها وحماماتها وتطحن به ارحاؤها ويخرج منها وقد حمل اثقالها واقذارها ورماداتها. ومن فضائل هذا النهر ما ذكره ابن جنون المتطبّب انه ينبه شهوة الجماع اذا شرب على الريق ويغسل به الثياب من غير صابون فيبيضها ويكسوها رونقاً وبصيصاً ورائحة طيبة كما يفعل الصابون. ويخرج منه الصدف الحسن الذي يقوم مقام الجوهر النفيس تباع الحبة منه بمثقال ذهب وأقل وأكثر وذلك لحسنه وصفائه وعظم جرمه ويخرج فيه أيضاً انواع من الحوت ... وهو حوت لذيذ الطعم كثير المنفعة؛ وعلى الجملة ان نهر مدينة فاس يفوق مياه المغرب في العذوبة والخفة وكثرة المنفعة»[١٣].

ومما جاء في وصف فاس شعراً قول ابي الفضل ابن النحوي

يا فاس منك جميل الحسن مترق ... وساكنوك ليهنهم بما رزقوا
هذا نسيمك، ام روح لراحتنا ... وماؤك السلسل الصافي، ام الورق؟
ارض تخللها الانهار داخلها ... حتى المجالس والاسواق والطرق

وقول الفقيه ابي عبد الله المغيلي يتشوق الى فاس وكان يلي خطة القضاء بمدينة آزمور:

يا فاس حيا الله ارضك من ثرى ... وسقاك من صوب الغمام المسبل
يا جنة الدنيا التي اربت على ... حمص بمنظرها البهي الاجمل
غرف على غرف ويجري تحتها ... ماء ألذ من الرحيق السلسل
وبساتن من سندس قد زخرفت ... بجداول كالايم او كالمقصل

وبجـــامع القـــروين شـــرف ذكـــره   انس بذكـــــراه بهـــــيج تململي
وبصـــحنه زمن المـــصـيف مـحـــاسن   فـمع العــشي الغــرب منه استــقـبل
واجلس ازاء الخــصـــة الحــسنا به   واكـــرع بهـــا عني ـ فـــديتك ـ وانهل

الهوامش

(١) زيادة، نقولا: لمحات من تاريخ العرب، بيروت، دار الكتاب اللبناني، ١٩٦١.
(٢) النبوغ المغربي، ج ٢ ص ٣١.
(٣) نخب تاريخية، ص ٢٢ـ٢٤.
(٤) نفس المكان، ص ٤٤.
(٥) نفس المكان، ص ٦٧ـ٦٩.
(٦) الاستقصا، ج ٣، ص ١١٢.
(٧) ابن حوقل: صورة الارض، ليدن، بريل، ص ٩٠ـ٩١.
(٨) المقدسي، ابو عبد الله محمد: احسن التقاسيم في معرفة الاقاليم، ليدن، بريل، ١٨٧٧ ص ٢٢٩ـ٢٣٠.
(٩) كنون، عبد الله: عبد الواحد المراكشي، بيروت، دار الكتاب اللبناني ص ٢٧ـ٢٨.
(١٠) كنون، عبد الله: ميمون الخطابي (تطوان لا. ت)، ص ١٢.
(١١) كنون: عثمان السلالجي، ج ١١، ص ١٨ـ١٩.
(١٢) ابن بطوطة: رحلة ابن بطوطة، القاهرة، الاميرية، ١٩٣٤.
(١٣) نخب تاريخية، ص ٢١ـ٢٢.

من الاعمال الكاملة للدكتور نقولا زيادة , اصدار الدار الاهلية للنشر والتوزيع في بيروت , الجزء الثالث عشر - مدن عربية